فى المحبة

حب الله

حب الله فى قلوب الناس يتفاوت ، وهم فى ذلك متباينون ، فعلى قدر الوصل يكون القرب ؛ وعلى قدر القرب تكون درجة الحب ؛ فمن الناس من ذاق الحب فاستطابه ؛ ومنهم من ملك عليه الحب إهابه ، ومنهم من أترع كأس الحب فشربها حتى الثمالة ؛ أولئك الذين باعوا دنياهم بآخرتهم فعملوا للآخرة كأنهم سيموتون غداً ، فلم يكن لهم من دنياهم نصيب ، وليس لهم فى حياتهم غد ، أولئك الذين حق فيهم قول الشاعر : —

لم يكن لى غد فأفرغت كأسى   ثم حطمتها على شفتيا

ومن هذا نعلم أن الحب درجات ومراتب ، وأنه الميل الطبيعى للشىء لكونه لذيذاً عند المحب فإن قوى الحب سمى صبابة ؛ لانصباب القلب إليه بالكلية ، فإن زاد سمى غراما ؛ لأنه يلزم القلب كلزوم الغريم : فإن اشتد سمى عشقا ؛ أى إفراطا فى المحبة ، فإذا عظم سمى شغفا ، لأنه يصل إلى شغاف القلوب وداخلها ، فإذا قوى سمى تتيما (أى تعبداً) لأنه يصير المحب عبداً للمحبوب ، فيكون ذلك المحب متيما مأمورا ، ومغرما مأسورا ، لا يقر له قرار ؛ ولا يميز بين النافع والضار ، فيحترق بنيران الحب ، ويتضور من مرارة العذاب ، ولذلك قال يحيى بن معاذ : صبر المحبين أشد من صبر الزاهدين .

ولا تسكن محبة الله القلب إلا بعد أن تخلص النفس من أدرانها ، وتطهر من أحقادها ، ولا يكون ذلك إلا بالمداومة على العبادة ، وملازمة سكن الصالحين ، وطرق الواصلين ، ومن ادعى المحبة وهو مستغرق فى ملاذه فهو كذاب ، وكيف يطمع فى دخول الجنة من لم يطرق الباب ، قالت السيدة رابعة العدوية : —

تعصى الإله وأنت تظهر حبه   هذا لعمرى فى القياس بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته   إن المحب لمن يحب مطيع

ثم إنه لابد للإنسان من شيخ يهتدى بهديه ، ويستضىء بنوره ، فى تلك المفاوز الوعرة ، حتى

لأزل قدمه ، ومن من الناس من قطع الفيافي والقفار ، دون أن يتخذ من روادها دليلا ؟

قال الإمام الغزالي(١) : — كنت في بدء أمري منكرا لأحوال الصالحين، ومقامات العارفين حتى صحبت شيخي (يوسف النساج) بطوس ، فلم يزل يشغلني بالمجاهدة حتى حظيت بالواردات ، فرأيت الله في المنام فقال لي : (يا أبا حامد ! ذر مشاغلك ، واصحب أقواما جعلتهم في أرضي محل نظري ، وهم الذين باعوا الدارين بحبي .) فقلت : رب بعزتك إلا أذقتني حسن الظن بك فقال (قد فعلت . والقاطع بينك وبينهم تشاغلك بحب الدنيا ، فاخرج منها مختارا ، قبل أن تخرج منها صاغرا ، فقد أفضت عليك أنوارا من جوار قدسي ، فخذ ، وقل) فاستيقظت فرحا مسرورا ، وجئت إلى شيخي فقصصت عليه المنام ، فتبسم وقال ، يا أبا حامد ، هذه ألواحنا في البداية محوناها بأرجلنا ، بل إن صحبتي ستكمل بصيرتك بأتم التأييد ، حتى ترى العرش ومن حوله ، ثم لا ترضى بذلك حتى تشاهد ما لا تدركه الأبصار ، فتصفو من كدر طبيعتك ، وترقى على طور عقلك وتسمع من الله كموسى « إني أنا الله رب العالمين ... » .

وكما أنه لابد أن يتخذ الإنسان من الزاد ما يكفيه لبلوغ نهاية الطريق ، إذ قد ينفد الزاد وينقطع بالمسافر السبيل ، فلا ينفعه الدليل ، كذلك لابد للمريد من أن يعالج نفسه بالعبادة ، إذ لا فائدة لشيخ ينصح نفسا لم تزحزح عن طريق الغواية ، ولم تسلك مسالك الهداية ، وانظر (يا رعاك الله) إلى خطاب المولى جل وعلا للغزالي في منامه ، حيث يقول له : ذر مشاغلك ... الخ ، أي اترك مشاغلك الدنيوية ، وتعلق بمبادىء الذين أحبهم ، لأنهم باعوا دنياهم بحبي ، ولما سأله أن يشمله برعايته ، أجابه إلى طلبه ، وأفهمه أن الحائل بينه وبين أحبابه اشتغاله بحب الدنيا ، وانظر إليه إذ ذهب إلى أستاذه لتأويل رؤياه فقال له أستاذه : إن صحبتي ستكمل بصيرتك ... إلى أن قال وترقى على طور عقلك ، أي على جبل التجليات الإلهية ، فتغرق في الأنوار السرمدية ، وتسمع المناجاة القدسية ، كما سمعها موسى من قبل « إني أنا الله رب العالمين » ولقد صدقت فراسة الشيخ وتحققت ، فقد زكت نفس الغزالي بالعبادة ، وطهرت بالمحبة ، حتى اندمج في سلك الواصلين

---

(١) قال ابن السبكي في التعريف به : — هو حجة الإسلام ، ومحجة الدين ، التي يتوصل بها إلى دار السلام جامع أشتات العلوم ، والمبرز في المنقول منها والمفهوم ، جرت الأئمة قبله شأوا بعيدا ، ولم تقع منه بالغاية ، ولا وقف عند مطلب وراءه مطلب لأصحاب البداية والنهاية ، حتى أخمل من أقرانه كل خصم بلغ مبلغ السهى ، وأخذ من مختار البدع كل ما لا تستطيع أيدي الجاحدين مسه ، وكان يصفه شيخه إمام الحرمين بقوله : الغزالي بحر مغدق

(المتصوفين) وفى ذلك يقول : ـ

لما أردت أن أخوض فى سلك القوم ، وأشرب من شرابهم ، نظرت إلى نفسى فرأيت كثرة حجبها ، فدخلت الخلوة واشتغلت بالرياضة والمجاهدة أربعين يوما ، فانفتح لى من نور العلم مما لم يكن عندى ، شىء أرق وأصفى مما كنت أعرف ، فنظرت فيه قوة فنية ، فرجعت الى الخلوة ، واشتغلت بالرياضة والمجاهدة أربعين يوما ، فانفتح لى علم آخر أرق وأصفى مما عندى أولا ، ففرحت به ، ونظرت فيه ، فاذا هو قوة ممزوجة بعلم ، ولم ألحق بأهل العلوم الدينية ، فعلمت أن الكتابة على السمو ، ليست كالكتابة على الصفاء والطهارة .

نعم إن النفس إذا طهرت بالعباده أصبحت نقيه ، قابلة لكل اتصال . فاذا اتصلت أفاض الله عليها من العلوم الدينية شيئا كثيرا « واتقوا الله ويعلمكم الله » وقال الاصفهانى (١) فى تربية النفس :- أعلم أنه ليس يحسن بذي همة قد أحسن الله إليه فى خلقه وخلقه ، وفيض له من رياه فأحسن تربيته ، وأزاح فى معاونته بعد بلوغ علته ، أن يرض بأن يكون حيوانا وقد امكنه أن يكون إنسانا ، أو أن يكون إنسانا وقد أمكنه ان يكون ملكا ، أو أن يكون ملكا وقد أمكنه أن يكون ملكا فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، فتخدم الملائكة بخدمته ، كما قال تعالى « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار »

فنفوس الناس متباينة ، فمنهم ذو النفس الحيوانية ، ومنهم صاحب النفس الأنسانية ، ومنهم من تكون نفوسهم ملائكية ، ومنهم من علت نفوسهم حتى صاروا ملوكا تخدمهم الملائكة فى الحضرة العلية . فتتباين النفوس لأختلاف درجات الحب ، وبما أن ظاهر المحبة رضاء المحبوب ، فباطنها إعطاء القلب إليه بالكلية ، بحيث لا يبقى فيه مكان لغيره ، اذ القلب لا يسع اثنين .

حرام على قلب تعرض للهوى
يكون لغير الله فيه نصيب

احمد عبد الهادى
مدرس بمدرسة البراعة قليوبية

---

(١) هو ابو القاسم الراغب الاصفهانى المتوفى رأس القرن الثامن الهجرى ، وصاحب كتاب (تفضيل النشأتين ومحصيل السعادتين)